

## وقائع التحقيق بعد اعتقالات ٧ آب الماضي الجماعية: "البلانكو"

### او العمالة.

في الحلقة الثانية هذه يستكمل سلمان سماحة رواية ما حدث بعد اعتقالات ٧ آب ٢٠٠١ الجماعية، كاشفاً وقائع لقائه توفيق الهندي في غرفة التحقيق، وإيلي كيروز

### في رحلة العذاب الطويلة

رواها سلمان سماحة كتبها محمد ابي سمرا

١- كان الفصل الثاني من التحقيقات في مديرية المخابرات في وزارة الدفاع، بعد اعادتي اليها من سجن رومية، اشد قسوة من الفصل الاول. فما ان أنزلت من سيارة المرسيديس حتى انقضت عليّ رجل الامن من الخلف وعصر بقبضته رقبتي وجمدها، وامسك بيده الاخرى يدي المغولتين خلف ظهري، ثم دفعني امامه.

في الممر الخانق اياه الذي تركنا فيه اثناء التحقيقات السابقة، تركوني وحدي نحو ساعتين اثنتين. وبعدما ادخلوني الى غرفة التحقيق سرعان ما بادرنى المحقق - الذي لا اراه ويصلي صوته من ناحية ما في قاعة لا ادري لها شكلا ولا في اي موضع فيها اقف - بالسؤال عما اعرفه عن لقاءات توفيق الهندي في سفراته الى الخارج.

ولأني لا اعلم عن اي سفرات ولقاءات يتحدث، كأن سؤاله هذا يستكمل حديثا سابقا لا علم لي به، قلت اني لا اعلم شيئا عن سفرات توفيق الهندي، فطلب مني الخروج من المكتب كي اتذكر. قاندي رجل امن الى الممر ووقفني، وجهي الى الحائط، حيث تركت مدة ساعتين واقفا في مكاني لا ابصر سوى غبش الضوء الكئيب الخاوي في عيني المعصوبتين، ولا اشعر بغير الانهالك والالم في روحي وجسمي.

لا، لم اتذكر، قلت للمحقق بعدما ادخلوني اليه مجددا وسألني ان كنت قد تذكرت، ما دمت لا ادري ما الذي دعاني الى تذكره. طوال ذلك النهار وحتى منتصف ليله - وكنت اعلم انه نهار جمعة - وهم يدخلونني الى غرفة التحقيق ويعيدونني الى الممر، ويوقفونني تلك الوقفة المدمرة، كي اتذكر ما لا اعلم له موضوعا.

في اثناء وقوفي المتكرر في الممر كنت اسمع صوت صديقي ايلي كيروز الذي يسألونه السؤال نفسه ويدعوناه، مثلي، الى التذكر. بعد منتصف الليل، وكنت قد بدأت اتلاشي من شدة التعب، اجلسوني على كرسي، ثم راحوا يوقفونني كلما انتبهوا الى ان غفوة من تلك الغفوات المبجلة قد دهمتني.

افكار كثيرة كانت تشتبك في وعيي شبه المخدر وخصوصا ان اهلي الذين قابلتهم في المحكمة قبل ايام، اخبروني ان توفيق الهندي قد "اعترف" ببقاءه مع اسرائيليين. حدثت انهم يريدون ان اكون كبش محرقة ودعامة لما "اعترف" به، ورحت افكر في نوع التعذيب الذي مارسوه عليه حتى انتزعوا منه "اعترافات" لا اعلم ماذا تكون، ولا اي دور لي فيها، ما داموا قد اكلوا من سؤالي اثناء نوبات التحقيق عن الاسباب التي حملت توفيق الهندي على اخباري عن تحركاته.

وهكذا راحت الهواجس تتدافع في ذهني على غير هدى لتتركني نهبا لخوف من تهمة كبيرة تحاك ضدي ابعده من مسألة الاعتصام والتظاهرات والنشاطات التي اقوم بها في "القوات".

٢- كان صباح نهار السبت من اقسى اوقات الاعتقال والتحقيق. فبعد تلك الغفوات واليقظات المبنجة والمزدحمة بالهواجس في اثناء قعودي على الكرسي، اوقفوني ساعتين في الممر ثم ادخلوني الى غرفة التحقيق التي من العادي ان تتلقى فيها صفعات على وجهك او رقبته وركلات في اي موضع من جسمك، انتت المكبل اليدين المعصوب العينين، وتشعر انك اقل شأنًا من حشرة عمياء، ولا تدري في اي لحظة تنهال عليك الصفحة او اللكمة او الركلة التالية، كي تبقيك مستنفرا ومكسورا لا حول لك ولا طول.

اجلسوني على كرسي في بداية التحقيق ذاك النهار، فوضع المحقق قدمه على حوضي وبدأ يوجه اليّ اسئلته، فيمل كنت اشعر أن رجلا يدور حولي واسمع وقع خطواته الرتيب على الارض، تقترب مني ثم تبتعد، كي لا استطيع التقدير في اي لحظة ستفاجئني صفعته او ركلته. قبل ظهر ذلك السبت ضاعفوا الضغط عليّ للوصول الى اعتراف مني حول ما اطلعتني عليه توفيق الهندي في اتصالاته بـ"اليهود". اخرجوني مرات كثيرة الى الممر ثم اعدوني الى غرفة التحقيق، واتبعوا الامر نفسه مع صديقي ايلي كيروز الذي كنت اسمع صوته رافضا الاعتراف بما يريدون ان يعترف به، في اثناء وقوفي في الممر.

اخيرا، في واحدة من نوبات التحقيق معي قالوا لي ان ايلي قد اعترف بأننا كنا معا حين اطلعنا توفيق الهندي على اتصالاته. لكن قوة حاسة السمع، التي ضاعفها لديّ تعطل حاسة البصر، كذّبت اقوالهم، اذ كنت قد سمعت ايلي يصرّ على اقواله نفسها.

ظهراً رفعوا وتيرة الضغط علينا. قال المحقق لرجل الامن ان يأخذني من الغرفة، وتابع: بلّش بالثاني، الجلد إلـك وإلنا العظام، فأيقنت انهم سوف يبدأون بسحق ايلي قبل سحقني. ومن الفراغ الذي اتاح لي الابصار من اسفل الخرقة التي تعصب عينيّ، رأيتهم يدخلون ايلي الى غرفة جانبية تركوا بابها مفتوحا.

لاحقا، بعد انتهاء هذا الفصل من الاعتقال والتحقيق واحالتي على سجن رومية، علمت لماذا ضاعفوا الضغط والتعذيب علينا في ذلك النهار: لقد كانوا يريدون ان يحصلوا منا على اعترافات يزودونها رئيس الجمهورية الذي كان سيزور البطريرك الماروني ليطلعه على "وقائع المؤامرة التي حيكت على لبنان مع الاسرائيليين، وكنا طرفا فيها، وكانت سوف تتجح لو لم تبادر الاجهزة الامنية الى احباطها بالاعتقالات الجماعية التي حصلت في ٧ آب". وسمعت ايلي كيروز يصرخ في الغرفة الجانبية وسمعت يتضرع قائلاً لهم: والله، والله ما لنا علاقة بالموضوع! كنت اعلم ان ايلي المصاب بديسك في ظهره لن يتحمل آلام التعذيب على طريقة "البلانكو"، فيما هم يعلّقونه من يديه المكبلتين خلف ظهره ويرفعونه الى اعلى بواسطة حبل مربوط الى بكرة في السقف. ومثل هذه العملية قد تؤدي الى تهتك في عضلات الكتفين واربطتهما.

ألمني صراخ ايلي وتضرعه في تلك اللحظة التي قد تكون الاسوأ في حياتي كلها. فرجلاي راحتا تهتزتان تحت جذعي الذي حاولت ان اشدّ اعصابه واعصاب رجليّ كي لا أنهار ارضا، فيما كاد ينزلق عن خصري البنطلون الذي ارتديه واتسع على جسمي بعد مرور اسبوعين عليّ وانا بلا اكل ولا نوم.

بعدها اخرجوا ايلي من غرفة "البلانكو" وادخلوني اليها، سألتني الرجل الذي اقتادني ان كنت اعلم من الذي كان يصرخ، فأجبتة بالنفي. ولما سمعته يقول لزميله: علّقه، قلت اني اريد ان يجمعني بتوفيق الهندي كي اكذّب وجاهيا "اعترافاته". لم يعلّقوني "بلانكو". وبعد نحو ربع الساعة اخرجوني من الغرفة.

٣- ساروا بي خطوات، ثم نزعوا القطعة المعدنية المعلقة في عنقي والتي تحمل رقمي، واحسست اني اقترب من الضوء، قبل ان ينزعوا الخرقه التي تعصب عينيّ ويدخلوني الى مكتب ابصرت فيه ايلي كيروز وتوفيق الهندي جالسين مع محققين. في ثيابه المرتبة والنظيفة بدا لي توفيق اقرب الى جثة جالسة على مقعد: لا لون في وجهه، لا حياة في عينيه الغائرتين التائهتين اللتين ما ان حدثت فيهما حتى لمحت في غوريهما اي شعور بلضيق والذنب والألم وملامة الذات يكتمه في نفسه التي يحملها مسؤولية توريطنا في قضية لا نعلم عنها شيئاً. سألته عن صحته واحواله في محاولة مني لدفع ذلك الشعور عنه، ولأبعث قليلا من الطمأنينة في نفسه. لكن المحقق سرعان ما قال له: تفضل استاذ توفيق خبرنا شو صار معك؟ كمن يتكلم في نومه قال: سافرت الى فرنسا واتصلت بلوبراني، وبعد عودتي الى لبنان اخبرنكم، ايلي وانت وآخرين لا اتذكرهم سريعا قاطعته قاتلا: كيف ومتى حصل ذلك يا توفيق، وعمّ تتكلم؟! في صوت خافت منقطع قال: لا اذكر، لا اذكر. كيف لا تذكر؟ متى سافرت، في اي سنة؟! سألته. مترددا وفي نبرة مختنقة اجاب: قبل الانتخابات... بعدها... لا اذكر... لا اذكر.

استمر يردد اقواله الحائرة، واستمرت على رفضها. طوال اللقاء كان صوته منقطعاً ومحايداً، كأنه يخرج من آلة، او من شخص ميت. اصراري على الرفض حمل المحققين على تلفيق مخرج مما نحن فيه، فقال احدهم: يبدو انك على خلاف مع توفيق الهندي كي يورطك في هذه التهمة محاولة منه لايدانك. بدل ان أجاري المحقق في قوله هذا، قلت له: بالعكس ان علاقتي بتوفيق الهندي جيدة جدا، وليس لديه اي دافع لايدائي، لكني لا ادري ما الذي يدفعه الى الاصرار على اقواله.

في محاولة منه للخلاص من الامر، او لاجاد مخرج لي ولنفسه، قال: ربما تكون قد نسيت اني اخبرتك بما أخبرتك اياه. شعوري بأنه يريدني ان اجاربه في اقواله، دفعني الى ان اقول: لا اعرف شيئاً مما يقوله توفيق الهندي. انا لا اتذكر ان ما يقوله قد حصل. وبما ان علاقته بي حسنة ولا مصلحة له في ايدائي، فان ما يقوله ربما يكون قد حصل، لكني لا اذكر ذلك.

اوقفوا التحقيق عند هذا الحد، وبعدما اخرجوني من الغرفة اعدوني اليها لواقع الافادة التي دونوها في المحضر وقرأها احدهم على مسامعي. نظرت في الورقة، فبدت لبصري الزائغ صفحة بيضاء تتراقص عليها حروف لا تأتلف في كلمات، وفي هنيهة واحدة وبحركة آلية وقعتها بلا اكرات.

٤- بعد ظهر ذلك النهار (السبت) عادوا مجددا الى التحقيق معي كما في السابق، مصرين على ان اعترف بأسماء الذين حضروا الجلسة التي اخبرنا فيها توفيق الهندي عن لقاءاته بلوبراني. وحين انكرت حدوث هذه الجلسة، قال لي المحقق اني قد اعترفت بذلك قبل لحظات، فجاوبته بان توفيق الهندي هو الذي قال لا انا. مجددا اخرجوني الى الممر. وفي المساء ادخلوني الى زنزانه فيها وعاءان، احدهما مليء بالماء، والآخر فارغ ومخصص للبول، فأمضيت الليل في تلك الزنزانه.

رغم جولات التحقيق التي اخضعت لها نهار الاحد، وكان مدارها اصرارهم على ان اعترف بأسماء الذين حضروا اجتماعنا المزعوم، فإن استرخاءهم اشعرتني بأنهم يضعون اللمسات الاخيرة على التحقيق. وصبيحة نهار الاثنين عادوا الى المعروفة اياها: من كان معكم في الاجتماع؟ وفي الاثناء كثيرا ما سمعت ايلي كيروز يقول للمحقق في صوت كله تضرع ورجاء: الله يخليك خليتي اعد، ضهري رح ينكسر.

بعد ظهر نهار الثلاثاء اقتادونا الى غرفة التصوير التي تشبه مرحاضا، والتقطوا لنا تباعا، ايلي كيروز وانا، صورتين، وكنا بناء على تجاربنا السابقة نعلم ان غرفة التصوير هي نهاية المطاف. اخرجونا من الغرفة، ثم كبلوا ايدينا وعصبوا عيوننا مجددا، واقتادونا الى مرحاض تتبعث منه رائحة كريهة امضينا فيه نحو ساعة سمعنا في اثنائها اصوات الناس القادمين لزيارة ابنائهم المعتقلين.

اخرجونا من المرحاض واقتادونا الى سيارة عسكرية. وحين حدسنا، بناء على تعرجات الطريق، انهم يسرون بنا نحو رومية، هدأت مخاوفنا، لاعتقادنا انهم قد يأخذوننا الى المديرية العامة للأمن العام، او لتسليمتنا الى السوريين. في باحة سجن رومية ذهبت عنا هذه المخاوف السوداء. وما ان نزعوا الخرق التي تعصب عيوننا، والقيود التي تكبل ايدينا، اندفعت نحو ايلي كيروز، صديقي منذ الطفولة، وعانقته بكل ما تبقى في جسمي من قوة. لم يكن ايلي يعلم اني قد سمعت صراخه في غرفة التعذيب، فاستغرب عناقي اياه في نهاية رحلة العذاب الطويلة. فالبقاء في سجن رومية حتى ٣٠ تشرين الاول من العام ٢٠٠١ كان يشبه نقاهة واستشفاء من تلك الرحلة المرعبة. شارك في الإعداد فيديل سبتي.

نشر في جريدة النهار